التى يتخذانها معبودا لهما وهى لا تضر ولا تنفع .

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة يوسف)

إذن فالقيم واحدة ، والله يريد أن يتوب عليكم ، ولكن الذين يتبعون الشهوات يريدون أن تميلوا ميلاً عظيماً ، حتى لا تكونوا مميزين عليهم تميزاً يحقرهم أمام أنفسهم ، فهم يريدون أن تكونوا فى الانحراف أكثر منهم ، لأنهم يريدون أن يكونوا متميزين فى الخير أيضاً ويقولون لأنفسهم : « إن كنا شريرين فهناك أناس شرٌ منا » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾

فسبحانه بعد أن قال : « يريد الله ليبين لكم » ليبصر ، و « الله يريد أن يتوب عليكم » ليغفر ، والآن يقول : « يريد الله أن يخفف عنكم » لييسر ، وهى ثلاثة أمور هامة . ويقول سيدنا ابن عباس - رضى الله عنه وعن أبيه - : « فى سورة النساء ثمانى آيات لأمة محمد هى خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب :

الأولى قول الحق :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

والثانية هى قول الحق :

﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

والثالثة هي قول الحق :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

والرابعة هي قول الحق :

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة النساء)

والخامسة هي قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

والسادسة هي قوله سبحانه :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

والسابعة هي قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

والثامنة هي قوله تعالى :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

هذه هي الآيات الثماني التي لم تؤت مثلها أي أمة إلا أمة محمد عليه الصلاة والسلام . ومنها قول الحق : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » . وما هو ضعف الإنسان ؟ . الضعف هو أن تستميله المغريات ولا يملك القدرة على استصحاب المكافأة على الطاعة أو الجزاء على المعصية ، لأن الذي تتفتح نفسه إلى شهوة مايستبعد-غالباً- خاطر العقوبة ، وعلى سبيل المثال ، لو أن السارق وضع في

ذهنه أن يده ستقطع إن سرق ، فسيتردد فى السرقة ، لكنه يقدر لنفسه السلامة فيقول : أنا أحتال وأفعل كذا وكذا كى أخرج . .

إذن فضعف الإنسان من ناحية أن الله جعله مختارا تستهويه الشهوات العاجلة ، لكنه لو جمع الشهوات أو صعد الشهوات فلن يجد شهوة أحظى بالاهتمام من أن يفوز برضاء ولقاء الله فى الآخرة .

وقول الحق : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » نلحظ فيه أن التخفيف مناسب للضعف ، والضعف جاء من ناحية أن الإنسان أصبح مختاراً وخاصة فى أمور التكليف ، فالذى جعل فيه الضعف جعله مختاراً يفعل كذا أو يفعل كذا ولكل أمر مغرياته . ، ومغريات الشهوات حاضرة . ومغريات الطاعة مستقبلة . فهو يغلب دائماً جانب الحاضر على جانب المستقبل .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

وعندما يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفت خلقه إلى أن يؤمنوا به يلفتهم إلى الكون ، ويلفتهم إلى ما خلق الله من ظواهر ليتأكدوا أن هذه الظواهر لا يمكن أن تكون قد نشأت إلا عن قادر عليم حكيم ، فإذا ما انتهوا إلى الإيمان به استقبلوا التكليف الذى يتمثل فى افعل كذا ولا تفعل كذا ، فحين يخاطبهم بالتكليف يجعل لأمر التكليف مقدمة هى أنك ألزمت نفسك فى أن تدخل إلى هذا التكليف ، ولم يرغمك الله على أن تكون مكلفاً ، وإنما أنت دخلت إلى الإيمان بالله باختيارك

وطواعيتك .ومادمت قد دخلت على الإيمان باختيارك وطواعيتك فاجعل إيمانك بالله حيثية كل حكم يحكم به الله عليك . من افعل كذا ولا تفعل كذا ، ولا تقل : لماذا أفعل كذا يارب ، ولماذا لا أفعل كذا يارب ؟ بل يكفى أن تقول : الذى آمنت به إلها حكيماً قادراً هو سبحانه مأمون على أن يأمرنى وأن ينهانى . ولذلك يجىء الحق دائما قبل آيات التكليف بقوله سبحانه : « ياأيها الذين آمنوا » فهو لم يكلف مطلق الناس ، وإنما كلف من آمن به .

إذن فحين يكلف من آمن به لا يكون قد اشتط وجار عليه لأنه قد آمن به بمحض اختياره .

وإذا لفتَّ إنسانا ونبهته وأمرته بأمر تكليفى مثل صَلِّ ، أو امتنع عن فعل المنكر فقال لك : « لا إكراه فى الدين » هنا يجب أن تقول له : أنت لم تفهم معنى قول الحق : « لا إكراه فى الدين » فأصل التدين والإيمان بالله ألاّ يكرهك أحد عليه ، بل ادخل إلى الإيمان بالله باختيارك ، لكن إذا دخلت إلى الإيمان بالله فالتزم بالسماع من الله فى « افعل » و « لا تفعل » فحين يقول الحق : « ياأيها الذين آمنوا » فهو يعطينا حيثيات التكليف ، أى علة الحكم . فعلّة الحكم أنك آمنت بالله إلهاً حكيماً قادراً . ومادمت آمنت بألله إلها حكيماً قادراً فسلم زمام الأوامر والنواهى له سبحانه ، فإن وقفت فى أمر بشىء أو نهى عن شىء فراجع إيمانك بالله .

إذن فقوله : « لا إكراه فى الدين » أى أنك حر على أن تدخل فى الإيمان بالله أو لا تدخل ، لكن إذا ما دخلت فإياك أن تكسر حكماً من أحكام الله الذى آمنت به ، وإن كسرت حكماً من أحكام الله تدخل معنا فى إشكال ارتكاب السيئات أو الذنوب .

والأحكام التى سبقت للذين آمنوا هى أحكام تعلقت بالأعراض وبإنشاء الأسرة على نظام طاهر نقى كى يأتى التكاثر تكاثراً نقياً طاهراً ، وتكلمت الآيات عن المحرمات من النساء وكذلك المحللات ؛ وهاهو ذا سبحانه يتكلم عن المال ، وهو الذى يقيم الحياة ، والمال كما نعرف ثمرة الجهد والمشقة ، وكل ما يتمول يعتبر مالاً ، إلا أن المال ينقسم قسمين : مال يمكن أن تنتفع به مباشرة ، فهناك من يملك

الطعام ، وآخر يملك الشراب ، وثالث يملك أثوابا، وهذا نوع من المال ينتفع به مباشرة ، وهناك نوع آخر من المال ، وهو « النقد » ولا ينتفع به مباشرة ، بل يُنتفع به بإيجاد ما ينتفع به مباشرة .

وهكذا ينقسم المال إلى رزق مباشر ورزق غير مباشر . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى حركة الحياة ، لأنه بحماية حركة الحياة يغرى المتحرك بأن يتحرك ويزداد حركة . ولو لم يحم الحق حركة الحياة ، وثمرة حركة الحياة فماذا يقع ؟ تتعطل حركة الحياة .

وإننا نلاحظ أن كل مجتمع لا يؤمن فيه على الغاية والثمرة من عمل الإنسان تقل حركة العمل فيه ، ويعمل كل واحد على قدر قوته . ويقول لنفسه : لماذا أعمل ؟ لأنه غير آمن . لكن إذا كان آمناً على ثمرة حركته يغريه الأمن على ماله على أن يزيد فى حركة العمل ، وحين تزيد حركة العمل فالمجتمع ينتفع وإن لم يقصد المتحرك . فليس ضرورياً أن يقصد الإنسان بكل حركته أن ينفع المجتمع . لا ، اجعله يعمل لنفع نفسه .

لقد ضربنا هذا المثل سابقاً : إنسان مثلاً عنده آلاف الجنيهات وبعد ذلك وضعها فى خزانة ثم تساءل : لماذا أضعها فى خزانة ؟ لماذا لا أبنى بها بيتاً آخر وأكرى منه شقتين ، فسيأتينى منه عائد ؟ هل كان المجتمع فى بال مثل هذا الإنسان ؟ لا ، إن باله مشغول بمصلحته ؛ لذلك فلنجعل مصلحة كل إنسان فى باله ، وهنا سيستفيد المجتمع بحركته قصد أو لم يقصد . لأنه ساعة يأتى ليحفر الأساس سيعطى أناساً أجورهم ؛ وساعة يأتى بالطوب يشتريه بثمن ، وساعة يبنى يعطى المهندس والعمال أجورهم ؛ لذلك أقول : اعمل لنفسك فى ضوء شرع الله ، وسينتفع المجتمع قهراً عنك .

ومن العجيب أنك تريد أن تنفع نفسك فيُبَيِّنّ لك ربنا : أنت ستنفع غيرك قبل أن تنتفع بعائد المنزل الذى بنيته ، ولا تظن أن أحداً سيأخذ رزق ربنا ولن يجريه على الخلق ، لا ، إن المجتمع سينتفع بالرغم منك .



إذن فمن حظ المجتمع أنْ نصون حركة الحياة . ونؤمن كل متحرك فى الحياة على ماله . لكن إن كنا حاكمين يجب أن تكون أعيننا مبصرة : أيكسب من حلّ أم لا ؟ فإذا كان الكسب حلالاً نشكره ، أما إذا كان يكسب من حرام ، فنحن نسائله ، وإن عمل على غير هذا توقفت حركة الحياة ، وإن توقفت حركة الحياة فهذا أمر ضار بالذين لايقدرون على الحركة ، لماذا ؟ لأن الله قسم المواهب على الناس ، فليس كل واحد من الناس يملك الطموح الحركى ، ولا يملك كل إنسان فكراً يخطط به ، فقد لا يكون فى المجتمع إلا قلة تخطط ، والباقون هم جوارح تنفعل للفكر المخطط ، والفكر يعمل لجوارح كثيرة ، فكذلك يكون هناك مفكر واحد هو الذى يضع خطة ينتفع بها الكثير من الناس .

إذن فلا بد أن نرعى حركة المتحرك وننميها ؛ لأن المجتمع ينتفع منها ، وإن لم يقصد المتحرك إلا مصلحة نفسه ، صحيح أن الذى ليس فى باله إلا نفسه إنما يحبط ثواب عمله ، وصحيح أن من يضع الناس فى باله إنما يُعطى ثمرة عمله ويأخذ ثواباً أيضاً من الله .

والحق سبحانه وتعالى يأتى فى مسائل المال ويوضحها توضيحا تامًّا ليحمى حركة الحياة ويُغرى الناس بالحركة ـ وبذلك يتعدد المتحركون وتتعدد الحركات ، ويستفيد المجتمع ، فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » وساعة تجد أمراً لجماعة فى جمع مأمور به فقسّم الأفراد على الأفراد .

مثال ذلك : عندما نقول لجماعة : اركبوا سياراتكم أى : ليركب كل واحد منكم سيارته ، والمدرس يدخل الفصل ويقول للتلاميذ : أخرجوا كتبكم . أى أن كل تلميذ عليه أن يخرج كتابه . فمقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً ، **وقول** الحق : « لا تأكلوا » فهذا أمر لجمع . و« أموالكم » أيضا جمع ، فيكون معناه : لا يأكل كل واحد ماله ، وكيف لا يأكل كل واحد منكم ماله ؟ ـ يوضح الحق : « بالباطل » . فيكون مطلوبا من كل واحد منكم ألا يأكل ماله بالباطل . والإنسان يأكل الشىء لينتفع به . والحق يوصيك ويأمرك : إياك أن تصرف قرشاً من مالك وتضيعه إلا فى حق ، هذا إذا كنا سنقابل المفرد ، فلا يأكل واحد منكم ماله

بالباطل ، بل يوجهه إلى الأمر النافع ، الذى ليس فيه حرمة ، والذى لا يأتى بعذاب فى الآخرة .

وإذا كان المراد أن لا أحد يأكل مال الآخر ، فسنوضحه بالمثل الآتى : لنفترض أن تلميذاً قال لمدرسه : يا أستاذ قلمى كان هنا وضاع . فيقول الأستاذ للتلاميذ : لا تسرقوا أقلامكم ، فهل معنى ذلك أن الأستاذ يقول : لا يسرق كل واحد قلمه أو لا يسرق كل واحد قلم أخيه ، إذن فيكون المعنى الثانى « لا تأكلوا أموالكم » ، أى لا يأكل كل واحد منك مال أخيه بالباطل .

وكيف يقول : « أموالكم »؟ ومادام مالهم فليس عليهم حرج ؟ لا ؛ لأن معناها المقصود : لا يأكل كل واحد منكم مال أخيه . ولماذا لم يقل ذلك وقال : « أموالكم » ؟ لأن عادة الأوامر من الحق ليست موجهة إلى طائفة خُلقت على أن تكون آكلة ، وطائفة خُلقت على أن تكون مأكولة ، بل كل واحد عرضة فى مرة أن يكون آكلاً لمال غيره ؛ ومرة أخرى يكون ماله مأكولاً . فأنا إذا أكلت مال غيرى فسوف يأكل غيرى مالى . فأكون قد عملت له أسوة ويأكل مالى أيضاً ، فكأنه سبحانه عندما يقول لك : لا تأكل مالك إنما ليحمى لك مالك .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يصنع من المجتمع الإيمانى مجتمعاً واحداً . ويقول إن المال الذى عند كل واحد هو للكل . وأنك إن حافظت على مال غيرك حافظ غيرك على مالك . وأنت إن اجترأت على مال غيرك فسيجترىء المجموع على مالك . وأنت ساعة تأكل مال واحد تجرِّىء آلاف الناس على أن يأكلوا مالك . وحين لا تأكل مال غيرك كأنك لم تأكل مالك .

« لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » وكلمة « أكل » معناها : الأخذ ؛ لأنّ الأكل هو أهم ظاهرة من ظواهر الحياة ؛ لأنها الظاهرة المتكررة ، فقد تسكن فى بيت واحد طوال عمرك ، وتلبس جلباباً كل ستة أشهر ، لكن أنت تتناول الأكل كل يوم ، وحينها نزلت الآية قال المسلمون : نحن لا نأكل أموالنا بالباطل . وتحرجوا أن يأكلوا عند إخوانهم . وبعد ذلك رفع الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأوضح أن

أكل التكارم ليس بالباطل - أنزل الله قوله :

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

هذه رفعت عندهم الحرج ، إنما ساعة سمعوا أكل الباطل قالوا : لا آخذ حاجة من أحد إلا بمقابل .

وما هو « الباطل »؟ . . الباطل هو أن تأخذ الشيء بغير حقه . مثال ذلك الربا ، لأن معنى « ربا » أن واحدا عنده فائض وآخر يحتاج ، والمحتاج ليس عنده الأصل أنطلب منه أن يرد الأصل وزيادة ، ويعطى الزيادة لمن عنده ؟

كيف يتأتّى هذا ؟ هذا هو الأخذ بالربا ، أو الأخذ بالسرقة ، بالاختلاس أو بالرشوة أو بالغش فى السلع ، كل ذلك هو أكل مال بالباطل،وساعة تريد أن تأكل مالاً بالباطل ؛ كأنك تريد أن تتمتع بثمرة عمل غيرك ، وأنت بذلك تتعود على التمتع بثمرة عمل غيرك ، وتضمحل عندك قدرة العمل ويصير أخذك من غيرك . أخذاً لماله كَرْهاً وبغير وجه حق وبذلك تتعطل حركة متحرك فى الحياة وهو ذلك العاطل « البلطجى » ، ويخاف المتحرك فى الحياة وهو من تُفرض عليه الإتاوة فيقل ويضعف نشاطه فى الحياة ، كيف يكون شكل هذا المجتمع ؟ إن المجتمع فى هذه الحالة سيعانى من كرب وصعوبات فى الحياة .

فقوله سبحانه : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » هو أمر لكل مسلم : لا ترابِ ، ولا تسرق ، ولا تغش ، ولا تدلس ، ولا تلعب ميسراً ، ولا تختلس ،

ولا ترتش ؛ لأن كل هذه الأمور هي أكل أموال بالباطل . وعندما ندقق فى مسألة لعب الميسر نجد أمراً عجيباً ؛ فالذين يلعبون الميسر يدعون أنهم أصدقاء ، «وينتظر بعضهم بعضاً ويأكلون معاً ، وكل واحد منهم يجلس أمام الآخر وهو حريص أن يأخذ ما فى جيبه ، فأى صداقة هذه ؟.

إذن فساعة يقول الحق : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » ، وساعة يأمرك الحق : إياك أن يصعب عليك التكليف ؛ لأنه شاق عليك ، ولكن قدر ما يأخذه منك التكليف من تضييق حركة تصرفك ، وما يعطيك التكليف من تضييق حركة الآخرين ، الحق قال لك : لا تأخذ مال غيرك لكى لا يأخذ غيرك مالك ، وبذلك تكسب أنت ويكسب كل المجتمع ، فحين يصدر أمر لإنسان أن يكف يده عن السرقة فهو أمر للناس جميعاً كى يكفوا عن سرقة هذا الإنسان ؛ لذلك فحين تستقبل أى حكم عن الله لا تنظر إلى ما أخذه الحكم من حريتك ، ولكن انظر إلى ما أعطاه الحكم لصالحك من حرية الآخرين .

ومثال ذلك : حين يوضح الحق وينهى عن النظر إلى المرأة الأجنبية فإياك أن تمد عينك إلى محارم غيرك ، هو أمر لا يخصك وحدك ، ولكنه أمر لملايين الناس ألا يمدوا عيونهم إلى محارمك ، وعندما توازن الأمر فأنت الذى تكون أكثر كسباً .

إننى لذلك أقول دائماً : لا تنظر إلى ما فى التكليف من مشقة أو إلى ما أُخذ منك ، ولكن انظر فيه إلى ما يعطى لك ؛ فإن نظرت هذه النظرة وجدت كل تكليف من الحق هو ربح لك أنت . وإلا لو أننا أطلقنا يدك فى الناس جميعاً لا بد أن تقدر أننا نطلق أيدى الناس جميعاً فيك . وأنت إذا أطلقت يدك فى الناس فلن تؤثر فيهم مثلما يؤثرون فيك لو أطلقوا أيديهم فيك وفيما يخصك ، فمن مصلحتك ألا تطلق يدك فى الناس .

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » وكلمة « إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » أى إلاّ فى النفعية المتبادلة تبادل الأعواض،فشىء عوض شىء . وجاءت التجارة ؛ لأن التجارة هى

الحلقة الجامعة لأعمال الحياة ؛ فالتاجر هو وسيط بين من ينتج سلعة ومن يستهلكها . والسلع فى حركتها إنتاج واستهلاك . والإنتاج قد يكون زراعيا او صناعياً أو خدمياً . إذن فالتجارة جامعة لذلك كله .

وكلمة « عن تراض » تدل على أن رضا النفس البشرية فى الأعواض مشروط ، حتى ما أخذ بسيف الحياء يكون حراما ؛ لذلك أقول : على كل واحد أن يغربل إيمانه ، وينظر هل حياته فى أعواض الأموال وأعواض التجارة وأعواض المبادلات مستوية أو غير مستوية ؟ فإن لم تكن مستوية ؛ فعليه أن يفكر فيها قليلاً حتى يُعطى كل ذى حق حقه . وحتى لا يدخل فى دائرة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها »[1] .

ويتابع الحق : « ولا تقتلوا أنفسكم » وهنا أيضاً مقابلة جمع بجمع ، ويعنى : لا يقتل كل واحد منكم نفسه ، وهذا ما يفعله المنتحر ـ ولا يقتل نفسه إلا إنسان وجد نفسه فى ظرف لا يستطيع فى حدود أسبابه أن يخرج منه . ونقول له : أنت نظرت لنفسك كإنسان معزول عن خالق أعلى ، لكن المؤمن لا يعزل نفسه عن خالقه ؛ فساعة يأتيه ظرف فوق أسبابه ولا يقوى عليه فعليه أن يفكر : وهل أنا فى الكون وحدى ؟ لا ، إن لى ربًا . ومادام لى رب فأنا لا أقدر وهو ـ سبحانه ـ يقدر ، وهنا يطرد فكرة الانتحار ؛ لأن المنتحر هو إنسان تضيق أسبابه عن مواجهة ظروفه فيقتل نفسه .

وإن فائدة الإيمان أنه ساعة يأتى ظرف عليك وتنتهى أسبابك تقول : إن الله لن يخذلنى وهو يرزقنى من حيث لا أحتسب ، ويفتح لى أبواباً ليست فى بالى ، وضربنا مثلاً كى نقرب المعنى ، وقلنا : هب أن إنساناً يسير فى الطريق ومعه « جنيه واحد »

---

(١) رواه مالك فى الموطأ ورواه أحمد فى مسنده ورواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أم سلمة .

فى جيبه ، ثم ضاع الجنيه ، وليس فى بيته إلا هو ؛ لذلك يحزن جداً على ذلك الجنيه . لكن من يضيع منه « جنيه » وعنده فى البيت خمسة « جنيهات » فالمصيبة تكون خفيفة ، كذلك من فقد أسبابه فعليه أن يخفف الأمر على نفسه فلا ييأس ، فَلِمَ يقتل نفسه ؟ الله يقول فى الحديث القدسى :

(بادرنى عبدى بنفسه حرمت عليه جنتى)[1] .

وهل أنت من وهبت الحياة لنفسك ؟ لا ، ولذلك فواهب الحياة هو الذى يأخذها ، ومن ينتحر لا يدخل الجنة ، لأنه لم يتذكر أن له إلهاً . ولنذكر هنا موقف قوم موسى عليه السلام عندما خرجوا ، وطاردهم قوم فرعون . فماذا قال قوم موسى ؟ قالوا :

﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

وهذا كلام صحيح فأمامهم البحر ومن ورائهم فرعون ، وهم قد قالوا ذلك بأسبابهم وبشريتهم . لكن ماذا قال سيدنا موسى ؟

﴿ قَالَ كَلَّآ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

و« كلا » هذه نفى ، وكيف يقول موسى : « كلا » وما رصيدها ؟ إنه لم يقل : « كلا » ببشريته ، ولكن قالها برصيده من الإيمان بالإله العظيم فقال :

﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

إذن فقوله : « ولا تقتلوا أنفسكم » أى ولا يقتل كل واحد منكم نفسه ؛ لأنك لا تقتل نفسك إلا إذا ضاقت أسبابك عن مواجهة ما تعانيه ، وهذا يدل على أنك

---

(١) رواه البخارى فى الجنائز .

عزلت نفسك عن ربك ، ولو ظللت على الإيمان بأن لك خالقاً لانفرجت عنك الكروب ، وأى مسألة تأتى تقول : « إن معى ربى سيهدين » .

إن الإيمان يعطيك صلابة استقبال الصعاب . وقد تأخذ « ولا تقتلوا أنفسكم » معنى آخر أى ، ولا تؤذوا بأنفسكم لأن تقتلوا ، أى لا تلق بنفسك إلى التهلكة ، أو « ولا تقتلوا أنفسكم » على أن المؤمنين هُم وحدة إيمانية ، أو أنّ المشرع لهذه الوحدة قال : الذي يَقتل يُقتل فإياك أن تقتل نفسك ، أى لا تقتل غيرك حتى لا يصير الأمر إلى أنك تَقْتُل نفسك لأنه سيقتص منك .

فقوله : « ولا تقتلوا أنفسكم » يعنى : لا تفعلوا ما يؤدى بكم إلى القتل ، ويحنن الحق الإنسان على نفسه وليس على الناس فحسب ، فلا يقول لك : لا تَقْتُل حتى لا تُقْتَل ، لأنه سبق أن قال :

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وعندما يعرف القاتل أنه إن قَتَلَ يُقْتَل ، فهو يتجنب ذلك ، ونلحظ أن الحق قال فى آية أخرى :

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

وهل أنا سأسلم على نفسى أو على الناس الداخل عليهم ؟ إن الإنسان يسلم على هؤلاء الناس ، وعندما تقول : « السلام عليكم » ، يعنى الأمان لكم . فسيقولون لك : « وعليكم السلام » فكأنك قد سلمت على نفسك . أو أن الحق قد جعل المؤمنين وحدة واحدة ، ومعنى « وحدة » يعنى أن ما يحدث لواحد يكون للكل .

إذن فقوله : « ولا تقتلوا أنفسكم » أى ولا يقتل واحد منكم نفسه ، فتصلح « ولا تقتلوا أنفسكم » بمعنى : ولا يقتل واحد منكم نفسه بأن ينتحر ، هذه واحدة ، ولا يقتل واحدٌ منكم نفسه بأن يلقى بها إلى التهلكة ، أو لا يقتل واحد منكم نفسه بأن يقتل غيره فيقتل قصاصاً ، أو لا تقتلوا أنفسكم يعنى : لا يقتل أحد منكم نفس

غيره لأنكم وحدة إيمانية وليس واحداً بعينه هو المأمور بل الكل مأمور ، فلا يقتل واحد منكم نفس غيره .

ويذيل الحق الآية : « إن الله كان بكم رحيماً » . وبالله ، ساعة ينهانى الحق عن أن أقتل نفسى أو أقتل غيرى ، أليست هذه منتهى رحمة الصانع بصنعته ؟ إنها منتهى الرحمة .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

« ذلك » : « ذا » وحدها للإشارة ، و « الكاف » للخطاب ، والخطاب إذا أُفرد ، فالمراد به خطاب الله لرسوله ، والمؤمنون فى طى ذلك الخطاب . ومرة يقول : « ذلكم » أى أنه يخاطبنا نحن ، مثل :

﴿ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٢٣٢ سورة البقرة)

وذلك إشارة لما تقدم مباشرة فى الآية الخاصة بقتل النفس ، وكذلك ما قبلها وهو أكل الأموال . والبعض يأخذها لكل ما تقدم من أول قوله : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » ، والبعض الآخر يأخذها من أول الأوامر والنواهى من أول السورة إلى هنا ، وكلها تصح .

« ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً » . والعدوان هو التعدى ، والتعدى قد يكون ظلماً وقد يكون نسياناً . ومن يتعدى بالظلم يكون عارفاً ويأخذ حق غيره ، أما

التعدى بالنسيان فيقتضى أن يراجع الإنسان سلوكه ، لماذا ؟ لأن العاقبة مريرة .

وقوله تعالى : « ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً » والفعل إذا أسند لفاعله أخذ قوته من فاعله . فعندما يقول لك أحد : إن عملت هذه فابنى الصغير سيصفعك صفعة ، وهو قول يختلف عن التهديد بأن يضربك شاب قوى ، لماذا ؟ لأن قوة الحدث نأخذها من فاعل الحدث ، من الذى يُصْلى المعتدى النار ؟ إنه الله ، وسبحانه سيجعله يصطلى بها .

ويقول الحق : « وكان ذلك على الله يسيرا » لأن فعل الله ليس عن معالجة بل ينفذ فوراً . ونعلم أن فعل المعالجة هو كل فعل يحتاج لوقت ، فهناك عمل يحتاج لساعة وكل دقيقة من هذه الساعة تأخذ جزئية من العمل ، وعندما تقسم العمل لستين جزئية ، ينتهى العمل فى ساعة ، وإن كان العمل ينتهى فى عشرة أيام تقول له : أسقط أوقات الراحة وعدم مزاولة العمل ، وقسم العمل على الباقى من الوقت . هذا هو ما يسمى علاجاً ؛ لأن ذلك من عمل الإنسان ، لكن عمل الله يختلف ، فالحق يقول للشىء : « كن فيكون » إذن فكل فعل على الله يسير مادامت المسألة : « كن فيكون » قال سبحانه :

﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة لقمان)

وسبحانه يوضح : أنا لا أُوجِد كل واحد مثلما خلقت آدم وأشكله وأخلقه ثم أبعثه ، لا ، بل كل الخلق كنفس واحدة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

هذه الآية هى إحدى ثمانى آيات قال عنها ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ : فى هذه السورة ـ سورة النساء ـ ثمانى آيات خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت ، وقلنا : إن هذه الآيات تبدأ بقوله سبحانه : « يريد الله ليبين لكم » ، « والله يريد أن يتوب عليكم » ، « يريد الله أن يخفف عنكم » ، ثم جاءت : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه » . و « الاجتناب » ليس معناه عدم مزاولة الحدث أو الفعل ، ولكن عدم الاقتراب من مظان الحدث أو الفعل حتى يسدّ المؤمن على نفسه مخايلة شهوة المعصية له وتصوره لها وترائيها له .

هذه الآيات الكريمات كانت خيراً لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت ، لأنها تحمى من حمق الاختيار الذى وجد فى الإنسان حين لا يلتزم بمنهج الله ، ولو أن الإنسان كان مسيَّراً ومُكْرَهاً على الفعل لارتاح من هذا الاختيار . وتعب الإنسان جاء من ناحية أن اغترّ بميزته على سائر خلق الله ، والميزة التى ميّز الله بها الإنسان هى العَقل الذى يختار به بين البديلات . بينما سائر الأجناس كلها رضيت من الله أن تكون مسخرة مقهورة على ما جعلها له بدون اختيار . ونعرف أن الحق قال :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الاحزاب)

فالإنسان قد ظلم نفسه ، لأنه أرجح نفسه عند اختيار الشهوة أو اختيار مرادات منهج الله ، بينما المقهورون أو المسخرون ليست عندهم هذه المسألة . وكل كائن منهم يقوم بعمله آلياً وارتاح من حمق الاختيار ـ فهذه الآيات طمأنت الإنسان على أنه إن حمق اختياره فى شىء فالله يريد أن يبصره ، والله يريد أن يتوب عليه ، والله يريد أن يخفف عنه . والله يريد إن اجتنب الكبائر أن يرفع عنه السيئات ويكفرها . كل هذه مطمئنات للنفس البشرية حتى لا تأخذها مسألة اليأس من حمق الاختيار ، فيوضح : أنا خالقك وأعرف أنك ضعيف لأنَّ عندك مسلكين : كل مسلك يغريك ، تكليف الله بما فيه من الخير لك وما تنتظره من ثواب الله فى الآخرة يُغرى ، وشهوة النفس العاجلة تُغرى .

ومادامت المسألة قد تخلخلت بين اختيار واختيار فالضعف ينشأ ؛ لذلك يوضح

سبحانه : أنا أحترم هذا فيك لأنه وليد الاختيار ، وأنا الذى وهبت لك هذا الاختيار .

والحق حين وهب الاختيار لهذا الجنس الذي هو سيد الأجناس كلها ، يُحبُّ أن يأتي لربه راغبا محبًّا : لأن هناك فارقاً بين أن يسخّر المسخّر ولا يستطيع أن ينفلت عما قدر له أن يعمله ، وتلك تؤديها صفة القدرة لله ، لكن لم تعط لله صفة المحبوبية ؛ لأن المحبوبية أن تكون مختاراً أن تطيع ومختاراً أن تعصى ثم تطيع ، هذه صفة المحبوبية، والله يريد من الإنسان أن يثبت بطاعته صفة المحبوبية له سبحانه ، فالإنسان المحب لمولاه برغم أنه مختار أن يفعل الطاعة أولا يفعلها ينحاز بالإيمان إلى جانب الطاعة .

« إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه » كأن الله بعد تكليفاته فى أمور الأعراض والأموال وتكليفاته فى الدماء من قتل النفس وغيرها ، أوضح : إياكم أن تستقبلوا الأشياء استقبالاً يجعلكم تيأسون من أنكم قد تعجزون عن التكليف لبعض الأمور ، فأنا سأرضى باجتناب الكبائر من المساوى : فالصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ، والجمعة للجمعة كفارة ، ومن رمضان لرمضان كفارة ، لكن بشرط ألا يكون عندكم إصرار على الصغائر لماذا ؟ لأنك إن قدرت ذلك فقدر أنك لا تقدر على استبقاء حياتك إلى أن تستغفر ، فلا تقل : سأفعل الذنب ثم أستغفر ، هذه لا تضمنها ، وأيضا تكون كالمستهزىء بربّه .

« إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » - فى السيئات يقول : « نكفر عنكم سيئاتكم » وقلنا : إن « الكفر » هو « الستر » أى يسترها - ومعنى نسترها يعنى لا نعاقب عليها ، فالتكفير إماطة للعقاب ، والإحباط إماطة للثواب . فإن ارتكب إنسان أمراً يستحق عليه عقاباً وقد اجتنب الكبائر يكفر عنه الله أى يضع ويستر عنه العقاب ، أماّ مَن عمل حسنة ولم يقبلها الله ، فهو يحبطها ، إذن فالتكفير - كما قلنا - إماطة للعقاب ، و« الإحباط » إماطة للثواب كما فى قوله :

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ ﴾

(من الآية ٢١٧ سورة البقرة)

أى ليس لهم على تلك الأعمال ثواب ؛ لأنهم فعلوها وليس فى بالهم الذى يعطى الثواب وهو الله . بل كان فى بالهم الخلق ، ولذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

(فعلت ليقال وقد قيل) .

أنت فعلت ليقال وقد قيل ، وقالوا عنك إنك محسن كبير ، قالوا : إنك بنيت المسجد ، وقرأوا اللافتة التى وضعتها على المسجد وسط احتفال كبير . ويقول الحق :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

أنت فعلت ليقال وقد قيل ، ولذلك فالذين عملوا مثل هذه ووضعوا لافتات من رخام عليهم أن يفطنوا لهذا الأمر ، وإن كان الواحد منهم حريصاً على أنه يأخذ الثواب من يد الله فليرفع هذه اللافتة ويسترها وتنتهى المسألة ، فالله سبحانه وتعالى يحب ممن يتصدق أن يكون كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم :

(ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[1] .

فأنت حين تتصدق لماذا تفضح من يتقبل الصدقة . والحق يقول : « إن تجتنبوا » ، و « الاجتناب » هو إعطاء الشىء جانباً . ولذلك يقولون : فلان ازورّ جانبه عنى ، أى أنه عندما قابلنى أعطانى جانبه ، والمراد فى قوله : « إن تجتنبوا » هو التباعد ، والحق ساعة يطلب منك ألا تصنع الحدث ويطلب منك بأسلوب آخر أن تجتنبه ، فهذا يدل على أن الاجتناب أبلغ ، لأن الاجتناب معناه ألا تكون مع المنهى عنه فى مكان واحدٍ فعندما يقول الحق :

﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

(١) ... مسلم وأحمد والنسائى والترمذى .

وعندما يقول :

﴿ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

فاجتنبوه أي : ابتعدوا عنه . لماذا ؟ لأن حمى الله محارمه . .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في المشبهات وقع في الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله تعالى في أرضه محارمه . . »[1] .

والحق يقول :

﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

واجتنابه يكون بألا توجد معه في مكان واحد يخايلك ويشاغلك ويتمثل لك ، فعندما تكون مثلاً في منطقة الذين يشربون الخمر يقول لك الحق : اجتنبها . أي لا تذهب إليها ؛ لأن الخمر عندما توجد أمامك وترى من يشربون وهم مستريحون مسرورون . . فقد تشربها ، لكن عندما تجتنب الخمر ومجالسها فأنت لا تقع في براثنها وإغرائها ، ولذلك قلنا : إن الاجتناب أبلغ من التحريم ، وهناك أناس يبررون الخمر لأنفسهم ويقولون : إن الخمر لم يرد فيها تحريم بالنص !! نقول لكل واحد منهم : حسبك أن شرب الخمر قرن بالرجس من الأوثان ، فالحق يقول :

﴿ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النحل)

فاجتناب الطاغوت ليس معناه ألا تعبده ، بل إياك أن تراه ، إذن فاجتناب الخمر ليس بألا تشربها ، بل إياك أن تكون في محضرها .

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة .

« والكبائر » جمع « كبيرة » ، ومادام فيه « كبيرة » يكون هناك مقابل لها وهى « صغيرة » و« أصغر » ، فالأقل من « الكبيرة » ، ليس « صغيرة » فقط ، لأن فيه « صغيرة » ، وفيه « أصغر » من « الصغيرة » وهو « اللمم » .

والحق يقول : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » و« السيئات » منوطة بالأمر الصغير وبالأصغر ، لكن هذه المسألة وقف فيها العلماء ، قالوا : معنى ذلك أننا سنغرى الناس بفعل السيئات ماداموا قد اجتنبوا الكبائر فقد يفعلون الصغائر . نقول : لا ، فالإصرار على الصغيرة كبيرة من الكبائر ؛ لذلك لا تجز الصغائر لنفسك ؛ فالحق يُكَفر ما فلت منك فقط ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾

(من الآية ١٧ سورة النساء)

يفعلون الأمر السيىء بدون ترتيب وتقدير سابق وهو سبحانه قال بعد ذلك :

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النساء)

إذن فمعنى أنك تصرّ على صغيرة وتكررها إنّها بذلك تكون كبيرة ، وإن لم نجتنب الكبائر ووقعنا فيها فماذا يكون ؟ . يقول العلماء الذين جعلهم الله هبات لطف ورحمة على الخلق : لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار . فإن أخذت هذه فخذ تلك ، خذ الاثنتين ، فلا كبيرة مع الاستغفار ، ومقابلها لا صغيرة مع الإصرار .

وحينما أراد العلماء أن يعرفوا الكبيرة قالوا : الكبيرة هى ما جاء فيها وعيد من الله بعذاب الآخرة ، أو جاء فيها عقوبة كالحد مثلاً فهذه كبيرة ، والتى لم يأت فيها حد فقد دخلت فى عداد السيئة المغفورة باجتناب الكبيرة أو الصغيرة أو الأصغر .

وأن سيدنا عمرو بن عبيد عالم من علماء البصرة وزاهد من زهادها ، وهو الذى قال فيه أحد الخلفاء : كلهم طالب صيد غير عمرو بن عبيد ، أى أن كل العلماء

يذهبون إلى هناك ليأخذوا هبات وهدايا إلا عمرو بن عبيد ، إذن فقد شهد له ، هذا العالم عندما أراد أن يعرف مدلول الكبيرة ، وأصر ألا يعرف مدلولها بكلام علماء ، بل قال : أريد أن أعرفها من نص القرآن ، الذى يقول لى على الكبيرة يأتينى بنص من القرآن . ودخل ابن عبيد البصرى على سيدنا أبى عبدالله جعفر بن محمد الصادق ، ونعرف سيدنا جعفر الصادق وهو أولى الناس بأن يُسأل ؛ لأنه عالم أهل البيت ، ولأنه قد بحث فى كنوز القرآن وأخرج منها الأسرار وعاش فى رحاب الفيض ، فقال ابن عبيد : هذا هو من أسأله ، فلما سلّم وجلس قرأ قول الله سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة النجم)

ثم سكت !! فقال له سيدنا أبو عبدالله جعفر الصادق : ما أسكتك يا بن عبيد ؟ قال : أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله .

وانظروا إلى الثقة بمعرفة كنوز القرآن ، ساعة قال له : « أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله » . قال أبو عبدالله : نعم ، أى على خبير بها سقطت ، أى جئت لمن يعرفها ، ثم قال : « الشرك بالله ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

وقال تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة المائدة)

وأضاف : واليأس من رحمة الله فإن الحق قال :

﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة يوسف)

وهكذا جاء سيدنا أبو عبدالله جعفر الصادق بالحكم وجاء بدليله ، وأضاف : ومن أمن مكر الله ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة الأعراف)

والكبيرة الرابعة : عقوق الوالدين ؛ لأن الله وصف صاحبها بأنه جبار شقى ، قال تعالى :

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة مريم)

وقتل النفس . قال تعالى :

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾

(من الآية ٩٣ سورة النساء)

وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات . قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة النور)

وأكل الربا . قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾

(من الآية ٢٧٥ سورة البقرة)

والفرار يوم الزحف ، أى إن هوجم المسلمون من أعدائهم وزحف المسلمون فرّ واحد من الزحف . فقد قال تعالى فى شأنه :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وأكل مال اليتيم . قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

والزنا . قال تعالى :

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾

(جزء من الآية ٦٨ ، والآية ٦٩ سورة الفرقان)

وكتمان الشهادة . قال تعالى :

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ ﴾

(من الآية ٢٨٣ سورة البقرة)

واليمين الغموس وهو أن يحلف إنسان على شيء فَعَله وهو لم يفعله أو أقسم أنه لم يفعله ، وهو قد فعله ، أى القسم الذى لا يتعلق بشيء مستقبل . قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والغلول أى أن يخون فى الغنيمة . قال تعالى :

﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة آل عمران)

وشرب الخمر ؛ لأن الله قرنه بالوثنية . قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

وترك الصلاة ؛ لأن الله قال :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة المدثر)

ونقض العهد ، وقطيعة الرحم وهو مما أمر الله به أن يوصل . قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ

وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧) ﴾

(سورة البقرة)

إذن فكل هذه ، هى الكبائر بنص القرآن ، وكل كبيرة معها حكمة ، عرضها لنا سيدنا ابن عبيد لأنه خاطب عالماً ، فإذا ما نظرنا إلى الاستنباط الذى جاء به سيدنا ابن سيدنا « جعفر الصادق » عندما سأله ، ثم يجيبه بهذا الترتيب وبشجاعة من يقول لابن عبيد . . « نعم » أى إن جوابك عندى ، ثم يذكرها رتيبة بدون تفكير ، وهذا دليل على أنها مسألة قد اختمرت فى ذهنه ، وخصوصاً أنها ليست آيات رتيبة مسلسلة متتابعة ! بل هى آيات يختارها من هنا ومن هناك ، مما يدل على أنه يُعايش أسرار القرآن .

لقد نشأ هذا الرجل فى بيت سيدنا جعفر الصادق وهو الذى وضع للمؤمن منهجاً بحيث لا يصيبه شىء فى نفسه إلا وجد له علاجاً ودواء فى كتاب الله ، إنه وجد أن الزوايا التى تعكر على الإنسان أنه يخاف من شىء ، والذى يخاف من شىء يكون هذا الشىء ـ غالبا ـ محدوداً معروفاً .

أنا أخاف من الشىء الفلانى ، ولكنَّ واحداً يصيبه غمّ وهمّ لا يدرى سببه ، فيقول لك : أنا مغتمّ دون أن أعرف السبب . إذن ففيه انقباض لا يعرف سببه ، وهناك مثلاً إنسان يكيد له أناس كثيرون ويمكرون له ويأتمرون به ، وهناك ثالث يحب الدنيا ويريد أن تكون الدنيا عنده ، كل هذه هى مشاغل النفس البشرية : أن تخاف من شىء ، أن تغمّ من شىء ، أن تشفق من مكر بك وكيد لك ، أن تتطلب أمراً من أمور الدنيا ، وسيدنا جعفر هو الذى قال : عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾

(من الآية ١٧٣ سورة آل عمران)

انظر لاستنباط الدليل ، الذى يقوله سيدنا جعفر : فإنى سمعت الله بعقبها يقول :

﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾

(من الآية ١٧٤ سورة آل عمران)

انظر دقة الأداء ، يقول : سمعت الله ، ولم يقل:قرأت ، كأن الإنسان ساعة يقرأ قرآناً لابد أن يتأكد أن الله هو الذى يتكلم . وجلال القديم يغطى على جدية الحادث ، فالذى يقرأ أمامك حادث ، لكنّه يقرأ كلام الله ، إذن فجلال القديم يغطى على جدية الحادث . ويضيف سيدنا جعفر : وعجبت لمن اغتم ولم يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الأنبياء)

ثم يقول : فإنى سمعت الله بعقبها يقول :

﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

ويضيف سيدنا جعفر : وعجبت لم مُكِرَ به ولم يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة غافر)

فإنى سمعت الله بعقبها يقول :

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة غافر)

وعجبت لمن طلب الدنيا كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الكهف)

فإنى سمعت الله بعقبها يقول :

﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ ﴾

(من الآية ٣٩ وجزء من الآية ٤٠ سورة الكهف)

هذه هى الاستنباطات الإيمانية ، والاستنباطات هنا كالاستنباطات هناك ، وإذا ما نظرت إلى الاستنباطات التى قالها سيدنا جعفر تجدها تغطى زوايا النفس الاجترائية ؛ لأن التكليف حينما يأتى يحدّ حركة الإنسان عن الشهوات ، فالآيات

جاءت لتحدّ من الاجتراء ، وتجدها تأخذ بالقمة من أول الاجتراء على الوحدانية فى الألوهية إلى قطيعة الرحم ، وقد غطت الآيات كل جوانب الاجتراءات فى النفس البشرية ، أول اجتراء : هو الشرك . . لأنه قال : « إن الشرك لظلم عظيم » والظلم الذى نعرفه : أنك تحكم بشىء للغير وليس من حقه ، فبالله عندما تحكم أن ربنا له شريك ، أليس هذا أعظم الظلم ، وهو ظلم لنفسك ، فإياك أن تظن أنك تظلم الله ؛ لأن ربنا أغنى الشركاء عن الشرك ؛ ولذلك يقول فى الحديث القدسى :

(أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه)[1] .

إن هذا ظلم لنفسك ؛ لأنك حين تعتقد أنّ لله شركاء فقد أتعبت نفسك تعب الأغبياء . واقرأ قول الله :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الزمر)

فعبد مملوك لعشرة أسياد ، وياليت العشرة الأسياد متفقون ، بل هذا يقول له : اذهب ، وهذا يقول له : تعال ، إذن فقد أتعب نفسه وأرهقها . إذن فقد ظلمها . . قال تعالى :

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة يونس)

إن الإيمان بإله واحد يجعلك غير خاضع إلا لوجهة واحدة ، ولا أوامر من جهة أخرى أبداً ، إذن فقد أرحت نفسك ، وهذه قضية يثبتها الواقع ؛ لأن الله قد أنزل فى قرآنه المحفوظ المتلو المقروء :

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

فالمؤمن يقول : هذه كلمة صدق ، والكافر يقول ـ والعياذ بالله ـ : هذه الكلمة غير صدق ، والمسألة على أى تقدير منتهية ، واحد جاء وأخذ الكون وقال : لا يوجد

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

إله إلا أنا ، والذى أخذ منه الكون إله ولكن أَعَلِمَ أن الكون أخذ منه أم لم يعلم بذلك ؟ إن لم يكن قد درى تكون مصيبة فى هذا الإله ، وإن كان قد درى فما الذى أسكته ؟ فالمسألة ـ إذن ـ محلولة ، هذه مسألة الشرك .

إن الإيمان بوحدانية إله جاءت لتريح النفس البشرية من كثرة تلفتاتها إلى آلهة متعددين ، إنّه هو الحق ، وهو الذى ينفع ويضر ، إنكم حين تكونون لإله واحد كمثل العبد يكون لمالك واحد ، أما عندما تعبدون آلهة متعددين تكونون كمثل العبد الذى له شركاء ويا ليتهم متفقون ؛ بل هم مختلفون .

بعد ذلك يأتى فى المرحلة الثانية وهى : اليأس من رَوْح الله ، و« الرَّوْح » من « الرائحة » وهى النسيم ، فساعة تكون فى ضيق والجو حار تلتفت لتجد واحة فتأوى إلى ظلها وهوائها وتلجأ إلى حضنها ، هذه الراحة يعطيها الله لمن لا ييأس من روْح الله فتعطيه صلابة إيمانية لاستقبال أحداث الحياة ؛ لأن الحياة أغيار ، وأحداثها متعددة ، وللعالم وللكون الظاهر سنن فى الأسباب والمسببات .

هَبْ أن أسبابك ضاقت بشىء ولم يعد عندك أسباب له أبداً ، فالذى لا يؤمن بإله قوى يخرق الأسباب ، ماذا يفعل ؟ ينتحر كما قلنا .

إذن فاليأس من روْح الله هو من جعل قوة الله العليا التى خلقت النواميس متساوية مع النواميس بحيث إذا ضاقت وعزت أسبابها البشرية فى شىء يئس منها ، أما المؤمن فنقول له : أنت لا تيأس ؛ لأنك مؤمن بإله قادر فوق النواميس ؛ فالذى ييأس من روْح الله كأنه يعطل طلاقة القدرة الإلهية على النواميس الكونية ، إنّ الله ، هو خالق هذه النواميس . فعندما ييأس إنسان من روح الله ، يكون قد سوّى الله ـ بطلاقة قدرته ـ بالنواميس ، إنّ الذى تأباه النواميس فسبحانه قادر أن ييسره .

وبعد ذلك جاء بـ « عقوق الوالدين » وهما الخلية الأولى التى يواجهها الإنسان ، وهما السبب المباشر فى إيجادك ؛ لأنك حين تعق وتعصى من كان سبباً مباشراً لوجودك تكون قد عققت وعصيت من كان سبباً أولياً لوجودك ، وهو الله الذى لم تره ، إذن

فاحترامهما والبرّ بهما ليس - فقط - لأنهما سبب فى وجودك وإنما - أيضا - لأنهما ربياك صغيراً فعليك بالبر بهما ، وهذا يحثك ويدفعك إلى أن تحفظ الجميل لمن كان سبباً فى إيجادك ، وتربيتك،وعندما ترقيها وتتساءل : من أوجد أباك ؟ جدّك . ومن أوجد جدّك ؟ تصل إلى أين ؟ لا يمكن أن تكون لها نهاية إلا أن تتصل بمن لا نهاية له ، وهو أن الله قد خلق آدم .

ثم قال : قتل النفس ، والقتل هو نقض بنية الكائن ، وهو يختلف عن الموت ، فالموت أن يموت الإنسان وبنيته سليمة ، لكن إن تلقى ضربة على رأسه فهو يموت منها ، هذا هو نقض البنية سواء أكان الضرب بحجر أم برصاصة أم بأى شيء . ولنقرأ القرآن بإمعان ، إنّ الحق يقول :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

فالموت هو سلب الحياة بدون نقض بنية ، وهذا لا يجريه إلا الله ، إنما القتل بهدم البنية ، فأى إنسان يستطيع أن يفعله ، فتخرج الروح بإذن الله ، وليس معنى ذلك أن أحداً عجّل بأجل القتيل ، لا ، ولكنه تدخل فى بنيان أقامه الله فهدمه ، ولو لم يتدخل أحد فى بنيان الله ليهدمه لكان أجله قد جاء . إذن فالقاتل يُعاقب لأنه تدخل فى هدم البنية وهو يعرف أن هذه الروح لا تحل إلا فى بنيان له مواصفات خاصة تقتضى أن يكون المخ سليماً ، وكذلك القلب ، وبقية أجزاء الجسم . لكن حين يجيء الأجل يموت الإنسان ولو لم ينقض أحد البنية .

وضربنا مثلاً لنقرِّب هذا الأمر - ولله المثل الأعلى :

إنّ هذه الروح نشبهها بالكهرباء ، فأنت لا تعرف الروح ولم ترها ولم تسمعها ولم تشمّها ولم تذقها ، إذن فبأى وسيلة من وسائل الإدراك أنت لا تعرفها . لكنك تعرف أنها تدير حياة جسمك كله ، بدليل أن الروح عندما تُسحب من الجسم يصير رِمّة . وقد جعلها الله كدليل ذاتى فى النفس البشرية على وجود إله لا تدركه الأبصار وهو



يدرك الأبصار ، تقول : لا نرى الله . نقول لك : نعم ، فهو سبحانه يقول :

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إن الحق لا يطالبك بأن تبصر ما فى الكون فقط من آيات ، بل إن الأدلة لاتتعداك أنت أولاً ، فروحك التى تدير جسمك أين هى ؟ ما شكلها ؟ ما لونها ؟ ما رائحتها ؟ أتعرف ؟ لا ، ولكنها موجودة فيك وأنت لا تراها ، فكيف تطلب أن ترى إلهاً وقد خلق شيئاً لم تقو على أن تراه ؟ أمخلوق لا تقدر أن تراه ، وبعد ذلك تريد أن ترى خالقه . إذن فمن عظمته أنه لا يُدْرَك ، ويقول الحقّ سبحانه وتعالى عن لحظة تنزل الروح فى الجسم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة ص)

لأنه سيكون إنساناً سوياً ، فإن شبهنا تلك الروح بالكهرباء ـ ولله المثل الأعلى ـ هل تعرف ماهى هل رأيتها ؟ . لم ترها ، هل أحد عرفها ؟ الذين اكتشفوها ، أعرفوا ماهى ؟ لم يعرفوا ، إنما نعرفها بآثارها ، فساعة نرى المصباح منيراً نقول : جاءت الكهرباء ، وساعة تدور المروحة تقول : الكهرباء جاءت . إذن فأنت تعرفها بآثارها ، كذلك تعرف الشخص أنه مات عندما لاتجد له حركة . وعندما تخف الحركة وتخْفُت يقولون : خذ الحركة من شيء إن وقف يكون الموت ، وليس من اليد ، لأن اليد قد لاتتحرك لإصابتها بالشلل ، بينما الإنسان مازال حيا ؛ ولذلك هات المرآة وضعها أمام مخرج النفس ، فإن وجدت بخاراً على المرآة فهذا يعنى أن هذا الإنسان مازال حياً ، وفيه روح ، وكذلك عندما ينكسر المصباح الكهربائى فالكهرباء لاتعمل عملها ؛ لأن الكهرباء لاتظهر إلا فى قالب من هذا النوع ، زجاجة مفرغة الهواء مصنوعة بشكل خاص إن انكسرت أو تلفت يذهب النور .

إذن فعندما نهدم الجسم لاتجد الروح الوعاء الذى تظهر فيه ، فكذلك المصباح الكهربائى إن انكسر تكون الكهرباء موجودة فى الأسلاك إنما لايوجد نور ، وعندما تأتى بمصباح جديد يأتى النور ، كذلك الروح لاتظهر إلا فى الجسد الذى له مواصفات خاصة ، هذا وإن القتل هو دليل عجز القاتل ، لأن القاتل حين يقتل خصمه فهذه شهادة

منه أنه أعجز من خصمه ، صحيح أنه قد قدر عليه وضربه وأماته وهذا مظهر قدرة بشرية حمقاء . لكن فى الواقع أن هذا عجز .

إن معنى القتل ونقض الحياة أن القاتل يعلن أمام الملأ أنه لا يستطيع أن يواجه حركة حياة خصمه ، ولايرتاح إلا اذا مات هذا الانسان ، إذن فقد شهد القاتل حين يقتل بعجزه . فلو علم القاتل أن قتله لنفس أخرى ليس دليل قدرة وقوة له ولكنها شهادة عجز ، وأنه لايمكن أن يواجه حياة هذا الحى إلا بأن يميته لما قتله ، والحق يحمى النفس البشرية من القتل حتى لايكون أى انسان مهددا ، وحتى لاتتعطل الخلافة التى أرادها الله فى الكون .

ثم تأتى كبيرة أخرى وهى : قذف المحصنات الحرائر ، ونعرف أن ركناً من أركان المجتمع السليم أن تظل الحرائر مصونات كى لايعانى النشء والنسل الذى ينسل منهم من ظن الريبة والعار ، وحين لاتظن النفس البشرية بريبة فهى تواجه الحياة بمنتهى طلاقتها وبمنتهى قدرتها ؛ لذلك فالذى يحب أن تشيع الفاحشة ويقذف المحصنات والحرائر بغير ما اكتسبن فهو يحدث زلزلة فى المجتمع ، زلزلة فى نسب أفراد المجتمع ، ويضار بها من ليس له ذنب ، يضار بها الأولاد الصغار ، وما ذنبهم وقد قال تعالى :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٨ سورة فاطر)

وبعد ذلك قال : أكل الربا ؛ لأن الربا يصنع خللاً إقتصادياً فهو يحمل غير الواجد أن يزيد ثروة الواجد .

والزنا كبيرة من الكبائر والحق يقول :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

فالزنا يجعل العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة استمتاع فقط ، والعلاقة الأولى التى أرادها الله حينما أوجد حواء لآدم هى أن تكون المرأة سكناً وليست أداة استمتاع

فقط ، والاستمتاع إنما جاء لحفظ النوع وأطلقه فى النفس البشرية ؛ لأن آثار هذا الاستمتاع تبعتها طويلة من تربية للأطفال الذين تطول طفولتهم ويحتاجون لرعاية ، ولو لم يربطها بهذا الاستمتاع لكان كثير من الناس يزهد فى الأولاد .

وكذلك الفرار يوم الزحف كبيرة من الكبائر ، لأن الفرار يصنع خللاً فى المجتمع الإيمانى ؛ لأن معنى الزحف أن أعداء الاسلام أغاروا علينا ، وماداموا قد أغاروا علينا فكل مسلم يقف على ثغرة من ثغور الاسلام ، حتى لايمكّن أعداء الإسلام من ديار الإسلام ، ولتظل كلمة الله هى العليا ، ففرار المسلم يعطى أسوة على ضعف الإيمان فى النفس ، ولذلك لاتغتروا بأن هذا صار مؤمناً وذاك صار مؤمناً ، فلو كان مؤمناً حقاً ووثق بالغاية فهو لايهاب القتال ؛ لأنه إن قتل صار شهيداً ومبشراً من الله بكذا وكذا ، لذلك فالفرار فى يوم الزحف يعطى أسوة سيئة ليس فى الحرب فقط ، بل سيعطى شيوع خلخلة إيمانية فى النفس البشرية ، والحق سبحانه وتعالى أوضح أن المؤمن عندما يدخل الحرب يرغب فى أحد أمرين كلاهما حسن : النصر أو الشهادة ، فقال سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

والمؤمن يتربص بالكافر ليحقق ماقاله الله :

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمن أن يثبت يقين إيمانه بأن يفقد الحياة التى هى سبب التمسك بمظاهر الحياة لأنه ذاهب لحياة أحسن ، ولكن الحق سبحانه وتعالى لايحب للمؤمنين أن يقدموا على عمليات انتحارية إلا حين تكون هناك مظنة للنصر بدليل قوله الحق :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

فالإنسان لايدخل فى معركة وهو غير مستعد لها ، أو ليس لديه مظنة النصر ، إنه إن فعل ذلك فإنما ينقص المسلمين واحداً ، فماذا أفادنا ؟ إن على المؤمن أن يقبل على الاستشهاد بثمن يخصه وهو الجنة ، وبثمن يُبقى للجماعة الأمان أو النصر .

وبعد ذلك قال : واليمين الغموس . واليمين الغموس تمثل قضية من قضايا خلل المجتمع ؛ لأن اليمين الغموس هى السبب الذى يغمس صاحبه فى النار ؛ لأنه حلف على شىء أنه كان وهو لم يكن ، أو على شىء لم يكن وهو قد كان ، وبهذا يتسلل الكذب إلى الصدق ، ولايعرف القاضى التمييز حين يفصل فى الحقوق ، هناك إنسان يكذب ويشهد ويحلف اليمين أن هذا حدث ويؤدى ذلك إلى ضرر بالغير ، فمن يريد أن يظلم لن يعدم شاهدين على باب المحكمة يحلفان له ، عندئذ يصبح الإنسان غير مطمئن إلى حركة حياته ولا إلى مصالحه .

وتأتى كبيرة أخرى وهى الغلول . وتعنى أن المسلمين حين يلتحمون بأعدائهم ويأخذون منهم الغنائم وهى مانسميها « السَلَب » . وهى أسلحة الأعداء وماعندهم من أشياء . . فبالله من يدخل معركة بهذا الشكل ويجد غنيمة ويأخذها ، أيكون قد نقض عملية الحرب فى سبيل الله أم لا ؟ إنه ينقض عملية الحرب فى سبيل الله ، إن الحرب فى سبيل الله شرعت لتكون كلمة الله هى العليا ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة آل عمران)

لقد قلنا : إن كان قد غلّ بقرة . . فسيحملها يوم القيامة ، وسيكون لها خوار . .

وإن غل فى أسمنت فسيأتى حامله يوم القيامة ، ومن غلّ فى حديد أو استورد لحوما فاسدة أو سمكا نتنا فإنه سيأتى وهو يحمله يوم القيامة .

ثم تأتى كبيرة وهى شهادة الزور . فشهادة الزور أيضا ركن من أركان فساد المجتمعات كلها ؛ لأنها لاتجعل المؤمن مطمئنا على حقه .

أما السحر فهو كبيرة تهدد المجتمع بما يفزع كيانه ، لأنه ينتهى إلى قوة خفية ، إذ

ليس أمام الذى يتعرض للإصابة به عدو مباشر يواجهه ، حتى يرتب لنفسه الحماية منه . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

أى ليس له نصيب فى الآخرة ، وربما يقول قائل : إذا كانت هذه مضرة السحر فى هدم كيان المجتمع وتفزيعه ، فلماذا وجد ؟ نقول له : إن الكائنات مخلوقة لله ، وكل كائن له قانون ، وقد يكون قانون كائن أخف وأسرع من قانون آخر ، فأفراد الجنس الواحد محكومون بقانون واحد . وحين يوجد لأفراد الجنس الواحد قانون يحكم حركته يكون قد وجد فى ذلك الجنس تكافؤ الفرص ، بمعنى أن لك فرصة هى لغيرك . أما أن توجد لك فرصة ولا توجد لغيرك ، فهذا يمثل خللاً فى تكافؤ الفرص فى الجنس الواحد .

إن تكافؤ الفرص هو الأمر الذى يحمى المجتمع ، بأن تكون فرصك أنت وفرصى أنا متساوية ، فيكون صاحب الحركة فى مادة الكون هو الذى يتغلب ، وبذلك لا آخذ أنا فرصة غير موجودة عندك . فتكافؤ الفرص هو الذى يرحم البشرية .

وإذا كانت قوة الشرق تتمثل فى الشيوعية فى روسيا قد سقطت وبقيت قوة فى الغرب تتمثل فى أمريكا ، فهناك قوى جديدة تحاول أن تعدل الميزان ، اليابان ، ألمانيا الموحدة ، وأوروبا التى تبحث عن الوحدة ، وكل ذلك من أجل أن تتوازن القوى فى الفرص المادية الموجودة . وهذا هو مايحمى الكون من الدمار ؛ لأن أى واحد يفكر فى أى شر جارف يخاف من رد الفعل ، ويخاف أن يردوا عليه بشر أشد ، ولو تيقنوا أن واحدة أقوى من الأخرى لجاء الخراب ، إذن فحماية الجنس البشرى إنما تنشأ من تكافؤ الفرص بين أفراده ، ولكن الإنسان جنس ، والجن جنس آخر ، والإنس والجن مكلفان من الله ، فعنصر الاختيار موجود فيهما ، ولذلك حكى القرآن :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ② ﴾

(سورة الجن)

وعندما قسموا قال القرآن :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الجن)

إذن فهم مثلنا .. لكنهم لهم قانون ولنا قانون :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

إذن فقانون الجن أنه يرى الإنسان ، والإنسان لايراه ، وقانونه أخف من قانون الإنسان ؛ لأن كل جنس يستمد قانونه من جرثومة تكوينه الأولى ، فنحن البشر مخلوقون من طين .. أى أن لنا مادية محسة وكثيفة . والجن مخلوق من النار ، والمخلوق من مادة الطين مثلنا ، النبات والحيوان ، تفاحة مثلاً مخلوقة من مادة الطين لأنها أخذت عناصر غذائها وتكوينها من تربة الأرض وخصوبتها . هب أنها خلف جدار وأنت جالس . أيتعدّى طعمها لك ؟ أتتعدّى رائحتها لك ؟ أيتعدّى لونها لك ؟ لا ، إذن فالجرمية المحيزة لاتجعلك تنتفع به .

لكن هب أن ناراً موضوعة وراء الجدار ، وبعد مضى مدة ستشعر بالحرارة ، أى أن الحرارة قد نفذت . والجن له شفافية وله خفة فى قانونه وفى انتقاله ولاتوجد مثل هذه الشفافية والخفة للإنسان ، ولذلك لاحظوا أن الحق سبحانه وتعالى حينما أراد أن يبين لنا هذا ، ضرب لنا المثل بسيدنا سليمان عليه وعلى نبينا السلام الذى سخر الله له الجن :

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ﴾

(من الآية ١٣ سورة سبأ)

وحينما اجتمع فى جنوده ومن حوله من الناس قال :

﴿ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة النمل)

وبعد ذلك جاءه الهدهد وقال له :

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ

﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(جزء من الآية ٢٢ والآية ٢٣ سورة النمل)

وهذا كله ليس بمهم ، إنما المهم هو قول الهدهد :

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة النمل)

وهذا ما يهم سيدنا سليمان كرسول . فسيدنا سليمان يتميز بأنه رسول وملك ، فجاء بالملكية أولاً : « إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم » هذه مقومات المُلك ، أما المسألة التى تهم سيدنا سليمان : « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » ، والسجود للشمس من دون الله ضايق الهدهد وهو الطائر ، كأن الهدهد عارف لقضية التوحيد وقضية الإيمان بدليل أنه غضب ، ثم يقول :

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النمل)

إذن فهو يعرف من الذى يستحق السجود ، ولاحظ أنه جاء بـ « الخَبْء » لأن طعامه دائماً من تحت الأرض ، ينقر ويُخرج رزقه .

واستمرت القصة حتى قال سليمان لمن يجلس معه :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة النمل)

وهذا يدل على أن سليمان عليه السلام كان على علم بأن بلقيس ـ ملكة سبأ ـ فى الطريق إليه ، ومعنى أن يقول : « أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين » . معناها أن الذى يتصدّى لهذا الأمر عليه أن يذهب من عند بيت المقدس إلى اليمن ويحلّ ويحمل العرش ويأتى به قبل أن تأتى بلقيس .

بالله هل من قانون بشرى يأتى به ؟ وكيف ذلك ؟ . ولذلك لم يتكلم إنسىٌ عادى ، فالإنس العادى يعرف أن قانونه البشرى لا يقدر على تلك المهمة ، لأن سليمان قال :

« قبل أن يأتونى » ، ومادام قال ذلك فقد علم أنهم فى الطريق . فهل يذهب إنسان عادى ويحلّ العرش ويحمله ويأتى به قبل أن يأتوا ؟ لا ، ولذلك عرفنا من هذه قول الحق :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الإسراء)

وهنا يتصدّى أحد الأذكياء من الجن قائلاً :

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النمل)

ومن يقول ذلك ليس بجن عادى ، فالجن أيضاً فيهم عفاريت أذكياء وفيهم من هو عاجز قليل الذكاء ، مثل الإنسان ، ومن قال ذلك أكد أنه قادر على أن يأتى بعرش بلقيس قبل أن يقوم سليمان من مقامه ، فكم يمكث من الوقت ؟ لا نعرف ، ترى هل يجلس سليمان مع القوم ساعتين أو ثلاث ساعات لا نعرف ، إذن فتأخذ هذه العملية زمن مقامه ، لكن ها هو ذلك الإنسىّ الذى أعطاه الله فتحاً من الكتاب وعلماً يقول :

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

الإنسىّ العادى لم يتكلم ، والعفريت من الجن قال : « أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك » أما الإنسىّ الذى أعطاه الله الفتح من الكتاب فقد قال : « أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » ولذلك انظر إلى الأداء العاجل فى القرآن أداء الحركة :

﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

فالمسألة حدثت على الفور .

والمهم لنا هنا أن نعرف أن الجن قال : « أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك » ، ومنها نعرف أن له قانوناً فى الحركة والسرعة ، والإنسان الذى وهبه الله علماً بالكتاب له قدرة وحركة . إذن فكل جنس من الأجناس له القانون المناسب له .

وقد يقف بعض الناس كما وقف كثير من سطحيى المفكرين قائلين : ما الجن والملائكة والعالم الخفىّ الذى تحدثوننا به ؟ نقول : ألا تؤمن إلا بالمحُسّ بالنسبة لك ؟ فما رأيك فى الميكروباتُ التى ظهرت الآن بعدما اختُرع المجهر ؟ لقد كانت موجودة ، أكنت تعرفها ؟ لقد كانت غيباً عنك ، فلماذا لا تأخذ من أن شيئاً لم يكن موجوداً تحت حسّك وغير مُدرك بإدراكك ، كان موجوداً وكنت لا تملك آلة إدراكه ، لماذا لا تأخذ من ذلك دليلاً على وجودْ أجناسٍ غير مُدركة ، وعندما يحدثك القرآن عن هذه الأجناس غير المدركة تتساءل عنها ؟ فما المشكلة فى هذا ؟ .

وبعد ذلك عندما يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف :

(وإن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم)(١)

قد تتساءل : وهل الشيطان يجرى مجرى الدم ، أهو سائل أم ماذا ؟

نقول : هو خلق لطيف خفىّ له قانونه الخاص ، فربنا فضح الفكر الملحد وفضح التشكيك فى الغيبيات التى يذكرها الله ، واكتشفنا أن هناك مخلوقات هى الميكروبات ، وهى من الجنْس المادى من الطين ، لكنها ضئيلة جداً ، وماذا يفعل الميكروب ؟ إنه ينفذ فى الجسم ولا تدرى أنت به وهو داخل فى جسمك ، وبعد ذلك ماذا يفعل فى حرارتك ؟ وماذا يفعل فى جسمك ؟- فعندما يقول لك الرسول المبلغ عن الله : إن الشيطان سيجرى منك مجرى الدم فما التناقض فى هذا ؟ إذا كان هناك شىء من مادتك ضئيل ولا تعرف كيف دخل ، ولا تشعر به وهو داخل ، ثم يقلب ميزانك فى الحرارة ويمارس العبث بكل جسمك ، فتهيج الكرات البيضاء لتقاومه وتخرج الصديد . أى تناقض إذن ؟

إن ربنا ترك من غيبيات كونه المادى ما يثبت صدقه فى التحدث بغيبيات أخرى : « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » ، لقد جاء

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود وابن ماجه .

الحق بواحد من الإنس حتى لا يظنن الجن أنه أخذ خفة قانونه وشفافيته وسرعته من عنصر تكوينه بل إنه أخذها بإرادة المكون ـ سبحانه ـ إذن فالمسألة ليست عنصرية بل هى إرادة الله إنه ـ جلت قدرته ـ أوضح: أنا أستطيع أن أجعل من الجنس القوى بقانونه وهو الجن محكوماً لواحد من الإنس ، ويجعله يعمل ما يريده . ولم يطلقها الله كطاقة ممنوحة لكل البشر حتى لا تحدث فتنة عند من يعرفها ؛ لأنها ستعطيه فرصة ليست موجودة عند غيره . وقد يطغى بها وهذا هو السحر . وأوضحنا ذلك عند قوله سبحانه :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

فتنة ، لماذا ؟ ، لأنك تأخذ فرصة ليست موجودة لغيرك ، وعندما توجد عندك فرصة ليست موجودة لغيرك فأنت لا تضمن نفسك أن تستعملها فى الضار فقد تستعملها فى ذلك ؛ فستذهب بك إلى النار . والحق يقول :

﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى من طلاقة قدرته يعطى للجنس الضعيف وهو الإنسان شيئا يستطيع به أن يسخرّ الأقوى وهو الجن ، والجن يعرف هذه الحكاية . ولذلك فكل الذين يتمثل لهم الجن لا يأتى ويدوم بل يأتى لمحة خاطفة ؛ لأنه لا يستطيع أن يستقر على صورته التى يتمثل فيها ، فلو تمثل بإنسان أو بحيوان مثلا لحكمته الصورة ، وإن حكمته الصورة ، واستطاع من يراه أن يطلق عليه رصاصة من «مسدسه» لقتله !

ولذلك فالجن يأتى لمحة مثل ومضة البرق ويختفى ، إنها طلاقة قدرة الحق التى

يمكن أن تعطى للجنس الأقل - الإنسان - قوة القدرة على أن يُسخِّر الجنس الأقوى - الجن - ، لكن هذه ليست فى مصلحة الإنسان ، ولذلك فالمؤمن من الجنّ يقول : أنا أكتفى فى جنسى بقانونى ، فربما يجعلنى عدم تكافؤ الفُرص طاغياً ، لأن من يملكون هذه القُدرة يطغون فى الناس . والذى يقوم بعمل تكره به المرأة زوجَها ويكره به الزوج امرأته هو نفسه من يَحِلّ مثل هذا العمل ، وَمن مصلحته أن تستمر هذه الحكاية .

ولذلك لا أحد يتغلب على تلك المسألة إلا إذا استحضر قول الحق : « وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » فالسحر وارد بنص القرآن ، لكن يجب أن تعلم أن هذه ليست طبيعية فى السحرة ولا ذاتية فيهم ، وإذا أراد الله ألا يضار الإنسان بالسحر فلن ينفع السحر ، وإن اتسعت المعرفة بهذا الأمر تكون فتنة للناس ، والذى يتبع هؤلاء السحرة ويذهب لهم ليفكّوا له السحر ، ويذهب لهم ليسحروا له الخصوم ، وينفتن فيهم يعيش طوال عمره مُرهقاً مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الجن)

صحيح أنهم يقدرون أن يسحروا ، لكن ذلك السحر يزيد المتسبب فيه رهقاً وتعباً .

وعلى المؤمن أن يحمى نفسه بهذا الدعاء : « اللهم قد أقدرت بعض خلقك على السحر ، واحتفظت لذاتك بإذن الضر ، فأعوذ مما أقدرت عليه بما احتفظت به » .

عندئذ لن يخافهم ولن يجدوا سبيلاً لهم إليه ، فهم يستغلون الضعيف فقط ، والسحر يُوجد عدم تكافؤ فرص ، ويفتن الناس فى الناس ، ويؤدى إلى إخلال توازن المجتمع .

وبعد ذلك تجىء كبيرة منع الزكاة ، والحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا أن نُزكى ، إنما يلفتنا إلى أننا لم نأت بشىء من عندنا ؛ فالعقل الذى يخطط للعمل مخلوق لله ، والجوارح التى تعمل مخلوقة لله ، والأرض التى تعمل فيها أو الصنعة التى

نصنعها مخلوقة لله . إذن فكل حاجة لله ، لكنه أوضح لك : سأحترم عملك ، وعليك أن تعطى أخاك الفقير بعضاً مما رزقتك به .

ويقول قائل : مادام هو ربُّ الكلّ ، فلماذا يترك واحداً فقيراً ؟ نقول : لكى يُثبت الأغيار فى الكون ، ويعرف الغنىّ أن الفقر قد يلحقه ، ويعرف القوى أن الضعف قد يلحقه ، إذن فالمسألة جاءت لنظام الكون ، فيحُنن الخالق قلب الواجد على المعدم ليعطيه ، فيوم تمنع الزكاة يظهر أثر ذلك فى الكون لأنها مسألة محسوبة بحساب دقيق ، ولذلك فإذا رأيت واحداً جوعان بحق فاعرف أن واحداً ضيع زكاته فلم يؤدها ، وإن رأيت عورة فى المجتمع فاعرف أن فيه حداً مضيّعاً لله ، لأن ربنا جعل المجتمع متساوياً والنقص هنا يكمّله من هناك ، فإن رأيت نقصاً عاماً فاعرف أن فيه حقاً لله مضيعاً .

وبعد ذلك حدثنا سيدنا جعفر الصادق عن كبيرة ترك الصلاة ، ونعرف أن الصلاة هى إعلان دوام الولاء للإله الواحد ، فأنت تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مرّة واحدة فى العمر ، وتُزكّى إن كنت واجداً وقادراً مرّة واحدة فى السنة ، وتحجُ مرّة واحدة فى العمر ، وتصوم شهراً واحداً فى السنة ، وإن كنت مريضاً لاتصوم وقد يسقط عنك هذا الركن إذا كان هناك مرض لايرجى شفاؤه أو أصبح الشخص لايقوى على الصوم لكبر سنه ، وإذا كنت فقيراً لاتزكى ، فقد سقطت الزكاة عنك أيضاً ، وإن كنت غير مستطيع فلا تحج ويسقط عنك الحج .

هاهى ذى ثلاثة أركان لك عذر إن لم تفعلها . وبقى ركنان اثنان من أركان الإسلام : شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والصلاة ، وشهادة أن لا إله إلا الله يكفى أن تقولها فى العمر مرة ، فماذا بقى من أركان الإسلام ؟ بقيت الصلاة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :

« الصلاة عمود الدين »[1] .

(١) رواه أبونعيم الفضل بن دكين فى الصلاة عن عمر وهو حديث حسن ، ورواه البيهقى فى شعب الإيمان بلفظ (الصلاة عماد الدين) عن عمر ولكنه ضعيف .

إذن فترك الصلاة معناه : أنه تمرد على إعلان العبودية والولاء للحق . وقد طلبها الله فى اليوم خمس مرات ، وحتّم الجماعة فيها فى يوم الجمعة فى الأسبوع . لماذا ؟ حتى يرانا كل العبيد لله عبيداً لله . فلا يعبد واحد ربنا سراً وبعد ذلك لايرى أحد منا أحداً فكلنا نسجد لله ولا بد من إعلان الولاء لله ، فيوم تُترك الصلاة ينعدم إعلان الولاء له ـ سبحانه ـ .

ومن العجيب أن الصلاة فرضها الله عليك بأنك تذهب له خمس مرات فى اليوم ، هذا بالأمر والتكليف ، وإن لم تذهب تأثم إنه ما أغلق الباب اذهب له فى أى وقت تجده فى استقبالك فى أى مكان تقف وتقول : الله أكبر تكون فى حضرة ربنا ، وقلنا سابقاً : إن من له السيادة فى الدنيا حين تطلب لقاءه تقدم طلباً حتى تلقاه . ويحدد لك الميعاد ، وبعد ذلك يسألك أحد رجاله : ستتكلم فى ماذا . وقد يقف المسئول أو السيد فى الدنيا وينهى المحادثة . لكن ربنا ليس كذلك . أنت تذهب له فى أى وقت وفى أى زمان وتطيل كما تحب ولن ينهى المقابلة إلا إذا أنهيتها أنت . ولذلك يقولون :

حسبُ نفسى عزاً بأنى عبد
يحتفى بى بلا مواعيد ربّ
هو فى قدسه الأعزّ ولكن
أنا ألقى متى وأين أحِبّ

صحيح هو يأمرنى أن ألقاه خمس مرات فى اليوم ، لكن الباب مفتوح للقائه فى أى وقت ، وأوضحنا سابقاً ـ ولله المثل الأعلى ـ هب أن صنعة تعرض على صانعها خمس مرات كل يوم ـ أيوجد فيها عطب ؟ لا . وأنت تعرض على خالقك وصانعك كل يوم خمس مرات . والصنعة العادية يُصلحها صانعها بسلك أو بمسمار أو بوصلة يضعها ، أما أنت المخلوق لله وربّك غيب وهو يُصلح جهازك بما يراه مناسباً .

وبعد ذلك بقى من الكبائر نقض العهد وقطيعة الرحم ، ونقض العهد لايجعل إنساناً يثق فى وعد إنسان آخر . فينتشر التشكك فى نفوس الجماعة الإيمانية بعضها من بعض ، والوعد قد يحل مشاكل للناس/المعْسرين ، فعندما يقول قادر لغير قادر : أعدك بكذا . ويعطيه ماوعده به ، فإن وعده المدين بسداد الدين وأخلفه مرة فلن

يصدقه بعد ذلك . وإن وعده وصدق ثم وعده وصدق ثم وعده وصدق ، يصبح صادقاً ، وكل ماعند الناس يصبح عنده ، ولذلك يقولون : من يأخذ ويعطى يكون المال ماله .

وبعد ذلك تأتى كبيرة قطيعة الرحم : لأن الحق سبحانه وتعالى اشتق للرحم اسماً من اسمه فهو القائل فى الحديث القدسى :

(أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته)[1] .

ونعلم جميعاً حكاية سيدنا معاوية عندما دخل عليه الحاجب وقال له : يا أمير المؤمنين هناك واحد بالباب يقول : إنه أخوك ، فيقول معاوية للحاجب : أى إخوتى هو ؟ ألا تعرف إخوتى ؟ فقال الحاجب : إنه يقول : إنه أخوك . فلما دخل الرجل ، سأله معاوية : أأنت أخى ؟ قال : نعم فقال معاوية : وأى إخوتى أنت ؟ . فقال : أنا أخوك من آدم ! فقال معاوية : رَحِمٌ مقطوعة ، لأكونن أول من وصلها .

تلك هى الكبائر التى ذكرها سيدنا جعفر الصادق وهى تمثل مايمكن أن يكون نقضاً للمجتمع كله من أساسه ، فكل كبيرة تنقض ناحية من نواحى المجتمع ، وهذا يخالف الإيمان ، لأن الإيمان هو منهج إن اتبعناه جميعاً عشنا فى أمن . والإسلام أيضاً منهج إن اتبعناه جميعاً عشنا فى سلام ، فيوم تأتى - أيها المسلم - كبيرة من هذه الكبائر فأنت تزلزل بها ركناً من الأركان ، وحينئذ لايكون هناك أمان ولاسلام ، ولذلك يقول الحق سبحانه : « إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه» وعندما ندقق فى كلمة «تنهون عنه» نلتفت إلى أن أصل الفضائل : أن تسلب نقيصة وأن توجب كمالاً ، فقبلما توجب الكمال بالأوامر اسلب النقائص بالنواهى ؛ ولذلك يقولون : التخلية قبل التحلية .

« إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم» . و« نكفر » أى نستر ، لأن

---

(١) رواه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد ، وأبو دواد والترمذى والحاكم عن عبدالرحمن بن عوف .

الكفر هو الستر ، وقلنا : إن التكفير للذنوب إماطة للعقاب ، والإحباط إماطة للثواب ، «وندخلكم مدخلاً كريماً » فلن نسقط عنكم العذاب فقط بل نعطيكم المدخل الكريم - يقول الحق :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة يونس)

وقد كان يكفى ألا تعاقب ، لكنك حينما تتجنب الكبائر لايسقط عنك العقاب فقط ، بل يدخلك الله مدخلاً كريماً ، والمدخل الكريم يتناسب مع من يدخلك فى مدخله ، فانظر ، إلى المدخل الكريم من الله وما شكله ؟ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى :

(أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرأوا إن شئتم : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين »)[1] .

وبذلك تنتقل الصورة إلى شيء جديد ، وهو : التوازن بين أفراد الجنس الإنسانى ، كل هذا الكلام كى يحفظ الجنس الإنسانى مع بعضه ، وبعد ذلك يريد الله أن يقيم توازناً ومصالحة إيمانية بين نوعى الجنس الإنسانى ، والجنس الإنسانى فيه ذكورة وفيه أنوثة . ونعرف أن كل جنس من الأجناس لاينقسم إلى نوعين إلا إذا كان فيه قدر مشترك يجمع النوعين من الجنس ، وفيه شيء مفترق يجعل هذا نوعاً وهذا نوعاً ولو لم يكن فيه شيء مفترق لما كان نوعين ، إذن فما دام الجنس الواحد نوعين فلا بد أن يجمعهما فى شيء مشترك ، ومادام الجنس الواحد قد انقسم لنوعين فكل نوع له مهمة . والذكورة والأنوثة هما نوعان لجنس البشر ، فالذكر والأنثى يشتركان فى مطلوبات الجنس ، وبعد ذلك ينفردان فى مطلوبات النوع ، وبعد ذلك كل نوع ينقسم إلى أفراد . والأفراد أيضاً ليسوا مكررين ، بل فيه قدر مشترك يجمع كل الأفراد ، وبعد ذلك كل واحد له موهبة وله ريادة وله شطارة فى مجال كذا أو كذا ، وبذلك يتكامل أفراد الجنس البشرى .

ومادام الجنس البشرى قد انقسم لنوعين ، فيكون للرجال خصوصية وللنساء

(١) رواه البخارى ومسلم .

خصوصية . وربنا سبحانه وتعالى لايأتى حتى فى البنية العامة ليجعل الجنسين مستويين فى خصائص البنية ، صحيح البنية واحدة : رأس وجذع وأرجل،إنما يأتى ويميز بنية كل نوع بشىء ، الرجل له شكل مميز ، والمرأة لها شكل مميز . ولذلك فالذين يقولون : نسوى الرجل بالمرأة أو المرأة بالرجل نقول لهم : المرأة لها تكوين خاص ، والرجل له تكوينه الخاص ، فإذا سويت المرأة بالرجل أعطيت لها مجالات الرجل ، وبقيت مجالاتها التى لايمكن للرجل أن يشاركها فيها ، معطلة لايقوم بها أحد.إذن فأنت حملتها فوق ماتطيق وأنت مخطىء ؛ لأنك تأتيها بمتاعب أخرى .

إن الحق سبحانه وتعالى ساعة يخلق جنساً ، وساعة يقسم الجنس إلى نوعين ، يوضح : تنبهوا أن كل نوع له مهمة وفيه شىء مشترك ، المشترك بين الأنوثة والذكورة ، ماهو ؟ إن هذا إنسان وذلك إنسان ، وإن هذا من ناحية الإيمان مُطالب منه أن يكون له عقيدة إيمانية ولا أحد يسيطر على الآخر فى عقيدته الإيمانية ، الاثنان متساويان فيها ، ولا يفرضها واحد على الآخر ، وضرب الله سبحانه وتعالى لنا مثلاً على تشخص الذكورة وتشخص الأنوثة فى الأمر الأولى للإيمان ، وإن اختلفت فى الأمر الثانوى للأحكام ، فيقول :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة التحريم)

وهذان رسولان ، ومع ذلك لم يستطيعا إقناع زوجتيهما بالتوحيد إذن فكل إنسان له حرية العقيدة والتعقل ، ولا أحد تابع لآخر فى هذه المسألة أبداً . ويقول الحق :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة التحريم)

فرعون الذى ادعى الألوهية لم يقدر أن يرغم إمرأته على أن تكفر والحق سبحانه وتعالى قال فيها :

﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ ﴾

(من الآية ١١ سورة التحريم)

إذن ففى مسألة العقيدة الكل فيها سواء ، الذكورة والأنوثة ، فيها عقل وفيها تفكير . ولعل المرأة تشير برأى قد يعز على كثير من الرجال . ولنا المثل من زوج رسول الله (أم سلمة) وموقفها فى صلح الحديبية فعندما يأتى الرسول صلى الله عليه وسلم ليعقد المعاهدة ، ويحزن أصحابه ومنهم عمر رضى الله عنه الذى قال : أنقبل الدنية فى ديننا فيقول له سيدنا أبوبكر : الزم غرزك ياعمر إنه رسول الله . فدخل رسول الله مغضباً ، طبعاً من حمية عمر وحزن الصحابة ، لأنها مسألة تعز على النفس البشرية ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يذهب فيجد أم سلمة فيقول لها : هلك المسلمون « ألا ترين إلى الناس آمرهم بالأمر فلا يفعلونه وهم يسمعون كلامى وينظرون وجهى ؟ فقالت يارسول الله : لاتلمهم فإنهم قد داخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح يا نبى الله اخرج إليهم ولا تكلم أحدا كلمة حتى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك » .

لقد وقّع رسول الله صلح الحديبية وانتهت المسألة . ولكن رحمة الله بالمؤمنين الذين وقفوا أمام رسول الله فى هذه المسألة ، ورحمة الله لهم بأم سلمة أوضح لهم الرسول : سأبين لكم : أنتم لو دخلتم مكة وفيها أناس مسلمون لاتعرفونهم إنهم يكتمون إيمانهم وإسلامهم ، والبيت الكافر قد يكون فيه واحد مسلم ، وقد تقتلون أناساً مسلمين لا تعرفونهم فتصيبكم معرة أى ما تكرهونه ويشق عليكم مصداقاً لقول الحق تعالى :

﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الفتح)

لو تزيلوا أى لو تميز المؤمنون فى منطقة لعاقبنا الكافرين عقابا شديدًا . إذن لقد أوضح لهم العلة ، فرضى الكل ، ولنا أن نلتفت إلى أن المسألة جاءت من سيدتنا

أم سلمة ، وهذا دليل على أن الله لا يمنع أن يكون لامرأة عقل وتفكير ناضج ، ولذلك نجد القرآن يؤكد ذلك في قصة بلقيس ، لقد فكرت بلقيس في الرجل الآتي ليزلزل ملكها : يا ترى هل هو طالب ملك ، فجاء على لسانها في القرآن الكريم :

﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة النمل)

فماذا قال القادة ؟ قالوا : لا ، هذه ليست مسألتنا ، وجاء القرآن بقولهم :

﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة النمل)

كان رجل الحرب يُؤتمر فقط ، يحارب أو لا يحارب ، لكن الذى يقدر هذا هم الساسة الذين ليس عندهم حمية وحركية القتال . نقول لقائد الجند : أنت تنتظر الأمر ، وتجعل الساسة الهادئين يفكرون فى عواقب الأمور ؛ لذلك قال قادة الجند لبلقيس : « نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك » لقد وضعوا الأمر فى رقبتها وهى امرأة ، ففكرت : سأجرب وأختبره وأنظر أهو طالب مُلك أم صاحب دين - فأرسلت هدية له ، فلما جاءته الهدية جاء القرآن بما قاله سيدنا سليمان عندما تلقى الهدية :

﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النمل)

فعرفت بلقيس أن المُلك ليس هدفه ، وبعد ذلك عرفت أنه صاحب رسالة ، فقالت : أذهب له وأسلم ، انظر أداء العبارة القرآنية عندما تصور إيمان ملكة قالت :

﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة النمل)

يعنى : أنا وهو أصبحنا عبيداً لله ، هذه رفعة الإيمان ؛ فلا غضاضة مادامت هى وهو عبيداً لإله واحد ، وبلقيس امرأة ولم يحرمها ربنا من الرأى الحسن أيضاً ومن الأداء الجميل ، وهى عندما ذهبت ووجدت عرشها وقد جاء به من عنده علم من الكتاب وأقامه ، لقد تركت العرش فى بلدها وجاءت إلى سليمان فوجدت عرشها ، وكان لا بد أن يلتبس عليها الأمر ، وقالوا لها : أهكذا عرشك ؟ :

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة النمل)

فأجابت إجابة دبلوماسية وكياسة :

﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة النمل)

هى امرأة ولم يحرمها الله من تميز الفكر ؛ لذلك لا يصح أن نحرم المرأة من أن يكون لها فكر . لكن المهم أن تعلم أن لها حدوداً فى إطار نوعيتها ، ولا تعتبر النقص فى شىء للرجل أنه نقص فيها ، فإذا ما كان عندها كمال لا يوجد عند الرجل فلتعلم أنه حتى فى البنية يختلف الرجل عن المرأة ؛ الرجل فيه خشونة وفيه صلابة وفيه قوة ، والمرأة فيها رقة وفيها ليونة ومستميلة ، ولها عاطفة فياضة ، وفيض حنان ، والرجل فيه صلابة حزم وعزم ، إذن فكل واحد معدّ لمهمة . فلا يقولن أحد : أنا ناقص فى هذه ، لكن انظر غيرك إنه ناقص فى ماذا وهو عندك أيضاً كامل .

ويأتى الدين ليوضح : يا مؤمنون . . الحرير حرام على الذكور وحلال للإناث الذهب حرام على الذكور وحلال للإناث ، أى تدليل أكثر من هذا ؟ . لقد حرم على الرجال التمتع بالحرير والذهب وأعطاهما للنساء ، والدين يطلب أن تكون المرأة سكناً للرجل ، فالمفروض أن الرجل هو الذى يتحرك حركة الحياة خارجاً ، وعندما يعود لمنزله فهو يسكن لزوجه ، والذى يصقل السيف ويحده ، مثل الشجاع الذى يضرب به تماماً.كل له عمل يكمل عمل الآخر ، وكذلك الرجل عندما يدخل منزله ويجد حياته مرتبة بفضل جهد زوجته فهو يرتاح ويشكر لها ما شاركته من أعباء الحياة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى خلق الكون وفيه أجناس ، وكل جنس يشمل أنواعاً أو نوعين ، وتحت كل نوع أفراد . فإذا ما رأيت جنساً من الأجناس انقسم إلى نوعين ، فاعلم أنهما يشتركان فى مطلوب الجنس ، ثم يختلفان فى مطلوب النوع ، ولو كانا متحدين لما انقسما إلى نوعين . كذلك فى الأفراد . وإذا نظرنا إلى الجماد وجدنا الجماد جنسا عاما ولكنه انقسم إلى عناصر مختلفة ، لكل عنصر من هذه العناصر مهمة مختلفة ، فمثلاً إذا أردنا إقامة بناء ، فهذا البناء يتطلب رملاً ، ويتطلب أسمنتاً ، ويتطلب آجُرًّا ، ويتطلب حديداً ، فجنس الجماد كله مشترك فى إقامة البناء ، ولكن للأسمنت مهمة ، وللجبس مهمة ، وللرمل مهمة ، وللمرو ـ وهو الزلط ـ مهمة ، فلا تأخذ شيئا فى مهمة شيء آخر . وكذلك انقسم الإنسان إلى نوعين ، إلى ذكورة تتمثل فى الرجال ، وإلى أنوثة تتمثل فى النساء ، وبينهما قدر مشترك يجمعهما كجنس ، ثم بينهما اختلاف باختلاف نوعيهما . فلو أردت أن تضع نوعاً مكان نوع لما استطعت .

إذن فمن العبث أن يخلق الله من جنس نوعين ، ثم تأتى لتقول : إن هذا النوع يجب أن يكون مثل هذا النوع . وأيضاً نعرف ذلك عن الزمن ، فالزمن ظرف للأحداث ، أى أن كل حدث لا بد له من زمن ، لكن لكل زمن حدث يناسبه . فالزمن وهو النهار ظرف للحدث فى زمنه ، والليل أيضاً ظرف للحدث فى زمنه . ولكن الليل حدثه السكون والراحة ، والنهار حدثه الحركة والنشاط . فإن أردت أن تعكس هذا مكان هذا أحلت وجمعت بين المتناقضين .

لقد أوضحنا أن الله يلفتنا إلى شيء قد نختلف فيه بشيء قد اتفقنا عليه ، فيبين